بسم الله الرحمن الرحيم:

التوجيه المعنوي للحرف القرائي في تفسير ابن جرير الطبري (3)

إعداد: د. الطيب شطاب

قوله تعالى: ﴿وَمَا يخدعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 08]

- **حكاية وجوه القراءة:**

ألمح ابن جرير إلى وجهين من القراءة في كلمة (يخدعون) هذه، دون إسنادهما لقراء معينين، جريا على عادته في إطلاق نسبة ما ينص عليه من الوجوه القرائية؛ إذ كان غرضه إثبات نوع القراءة لتأويل المعنى فيما يفسر من الآي، دون من كان بها قارئا. والوجهان القرائيان في هذا الحرف هما:

أولا: (وَمَا يُخَـدِعُونَ): بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال؛ وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو.

ثانيا: (وَمَا يخدعُونَ) بفتح الياء وسكون الخاء وفتح الدال، وهي قراءة الباقين. [1]

وقد حمل بعض المفسرين القراءتين على الأخرى، حين لم يثبت عنده فرق ما بينهما، فجعل يخادعون بمعنى يَخدعون، كما يقال: قاتله الله بمعنى قتله، وعاقبت اللص وطارقت النعل . [2]

غير أن ابن جرير لما صح عنده أن الخداع من المنافق لربه والمؤمنين لم يكن خديعة حقيقية، فجيء به على زنة المفاعلة في اللفظة الأولى: (يُخَـدِعُونَ ٱللَّهَ وَالذِينَ ءَامَنُواْ) وجيء به على زنة الفاعل [3] في الثانية (وَمَا يخدعُونَ) لكون الخديعة ثابتة من المنافق لنفسه

---

[1] – ينظر في نسبتهما: إتحاف فضلاء البشر.ص: 170

[2] – الحجة لابن خالويه ص 68 ومعاني القرآن للزجاج 1/ 85

[3] – لأنها القراءة الصحيحة لديه

على الحقيقة والصحة... لما صح عنده هذا التمايز في المعنى في الحرفين، لم يكن ليصير إلى التسوية بين الوجهين من القراءة، بل جعل الثانية أصح وأولى من الأولى.

وتفسير ذلك في المسألة الآتية:

•اختيار الطبري وتوجيهه:

رجح الطبري قراءة من قرأ بفتح الياء وإسقاط الألف، فقال بعد تفسير الخداع المذكور: "فالواجب إذاً أن يكون الصحيح من القراءة: (وما يخدعون إلا أنفسهم) دون (وما يخادعون)"[1] وقد بنى اختياره هذا على أمرين:

أولهما: أن الخديعة من المنافق لربه والمؤمنين[2] لم تجر على صحة، بل المنافق لم يخدع بصنيعه إلا نفسه؛ إذ خطأٌ كما قال ابن جرير: " أن يقال: إنهم خدعوا المؤمنين؛ لأنا إذا قلنا ذلك، أوجبنا لهم حقيقة خِدعة جازت لهم على المؤمنين؛ كما أنَّا لو قلنا: قتل فلان فلانا، أوجبْنا له حقيقة قتل كان منه لفلان، ولكنا نقول: خادَع المنافقون ربهم والمؤمنين، ولم يخدعوهم بل خدعوا أنفسهم، كما قال جل ثناؤه، دون غيرها، نظيرَ ما تقول في رجل قاتل آخر، فقتل نفسه ولم يقتل صاحبه: قاتل فلان فلانا، فلم يقتل إلا نفسه، فتوجب له مقاتلة صاحبه، وتنفي عنه قتله صاحبَه، وتوجب له قتل نفسه. فكذلك تقول:"خادع المنافق ربه والمؤمنين فلم يخدع إلا نفسه"، فتثبت منه مخادعة ربه والمؤمنين، وتنفي عنه أن يكون خدع غير نفسه، لأن الخادع هو الذي قد صحت الخديعة له، ووقع منه فعلُها. فالمنافقون لم يخدعوا غير أنفسهم، لأن ما كان لهم من مال وأهل، فلم يكن

---

[1] – جامع البيان 1/ 277

[2] – ومعنى خداع المنافق ربه والمؤمنين: إظهاره بلسانه من القول والتصديق، خلاف الذي في قلبه من الشك والتكذيب، ليدرأ عن نفسه، بما أظهر بلسانه، حكم الله عز وجل – اللازم من كان بمثل حاله من التكذيب، لو لم يُظهر بلسانه ما أظهر من التصديق والإقرار– من القتل والسِّباء. فذلك خداعه ربه وأهل الإيمان بالله"[جامع البيان 1/ 17-18]

المسلمون ملكوه عليهم – في حال خداعهم إياهم عنه بنفاقهم ولا قبلها – فيستنقذوه [1] بخداعهم منهم، وإنما دافعوا عنه بكذبهم وإظهارهم بألسنتهم غير الذي في ضمائرهم، ويحكم الله لهم في أموالهم وأنفسهم وذراريهم في ظاهر أمورهم بحكم ما انتسبوا إليه من الملة، والله بما يخفون من أمورهم عالم. وإنما الخادع من ختَل [2] غيره عن شيئه، والمخدوع غير عالم بموضع خديعة خادعِه" [3].

وتقريب المعنى في هذا النص الطويل أن قوله عز ذكره (يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلذِينَ ءَامَنُواْ) وفيه إخبار بأن المنافقين صائرون إلى مخادعة ربهم والمؤمنين، لم يكن فيه خديعة حقيقة، ولو كانت، لا ستعمل الفاعل بدل المفاعلة، فقال: (يَخْدعون) وإنما القرآن جار على سنن العرب في تعبيرهم في استعمال المفاعلة الدالة على المحاولة من الطرفين، ثم لا يثبت مدلولها، كما يقال: قاتله ولم يقتل إلا نفسه، وكيف تصح منهم الخديعة، وهم لم يحققوا مرادهم من سلب حقٍّ كان للمؤمنين فصار إليهم، والمؤمنون عالمون بمكرهم لم يلحقهم أي أذى في ذلك. ولو لحقهم، أو سُلب حق كان لهم بعد الخديعة وهم جاهلون بها لقيل إن ثمة خديعة حقيقية..ولكن الخديعة الحقيقية إنما هي لأنفسهم بازدياد الإثم عليهم واستحقاقهم العذاب بصنيعهم، وهو مراد الطبري في قوله: "لأن لفظ "المخادع" غير موجب تثبيت خديعة على صحة، ولفظ"خادِع" موجب تثبيت خديعة على صحة. ولا شك أن المنافق قد أوجب خديعة الله عز وجل لنفسه بما رَكِب من خداعه ربَّه ورسوله والمؤمنين – بنفاقه" [4].

---

[1] – أنقذه من كذا واستنقذه وتنقَّذه تنقُّذا: أي نجاه وخلصه. [مختار الصحاح: نقذ]

[2] – ختل: خدع، من باب ضرب [مختار الصحاح: ختل]

[3] – جامع البيان: 1/ 276

[4] – نفسه 1/ 277

ومن أجل ذلك لم تكن لتصح قراءة من قرأ (وما يخادعون إلا أنفسهم) حسب ابن جرير، و"وجبت الصحة لقراءة من قرأ: (وما يخدعون إلا أنفسهم)"[1] كيف والخديعة من المنافق ثابتة حقا على نفسه، "لما يورطها بفعله من الهلاك والعطب".[2]

الثاني من مباني اختيار هذا الوجه من القراءة: هو ما نص عليه بقوله: "ومن الدلالة أيضا على أن قراءة من قرأ: (وما يَخْدعون) أولى بالصحة من قراءة من قرأ: (وما يخادعون)، أن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم يخادعون الله والمؤمنين في أول الآية، فمحال أن ينفي عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه؛ لأن ذلك تضاد في المعنى، وذلك غير جائز من الله جل وعز"[3].

وتفسير قيل الطبري هذا –إذ كان كلامه في تفسير هذه الآية مفتقرا لكشف جلي لما يرومه من تقرير المعنى المختار– أن القراءة التي فيها فعل الخديعة بالمفاعلة في الموضعين: أحدهما فيه مثبتة، والأخرى منفية، يستلزم نوع تضاد في المعنى، فكان بيِّنا أن المنفي إنما هو المخادعة من المنافقين لربهم والمؤمنين على النحو الذي مضى بيانه، دون أصل إرادتها ومحاولتها، حيث كانوا زاعمين أنهم قد حققوا أرَبهم، فنفى الله عز وجل أن تكون الخديعة إلا على أنفسهم، ولذلك كان المصير إلى قراءة (وما يخدعون) أولى بالصواب.

- **قوله تعالى:** ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ اَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يكذبُونَ﴾ [البقرة: 09]

حكاية وجوه القراءة:

نص الطبري على اختلاف القَرأة في قراءة (يكذبون) على وجهين من القراءة، ناسبا الوجه الأول "لعُظم قرأة أهل الكوفة" والثاني "لعظم قرأة أهل المدينة والحجاز والبصرة"[4] :

---

[1] – نفسه

[2] –نفسه

[3] – نفسه

[4] – جامع البيان 1/ 284

الوجه الأول: بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال (يَكذبون) من الكذب، وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي، وكذا خلف، وافقهم الحسن والأعمش.

الثاني: بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال من التكذيب، وهي قراءة الباقين. [1]

توجيه القراءتين:

1- أما من قرأ بتخفيف الذال، فهو صائر إلى أن الوعيد الموجَب للمنافقين إنما كان بسبب كذبهم المدلول عليه في قوله:(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنۡ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ) وهو مختار الطبري كما سيأتي ذكر حجته، وتفسير مفصل لوجهه.

2- ومن قرأوا بتشديد الذال وضم الياء فقد "رأَوا أن الله جل ثناؤه إنما أوجب للمنافقين العذاب الأليم بتكذيبهم نبيه صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، وأن الكذب لولا التكذيب لا يوجب لأحد اليسير من العذاب، فكيف بالأليم منه؟"[2]

اختيار ابن جرير وتوجيهه:

اختار الطبري قراءة تخفيف الذال (يكذبون) منتقدا تأويل من زعموا أن الله عز ذكره إنما توعد المنافقين بتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، دون كذبهم، فوقع اختيارهم على قراءة التشديد، فقال: "وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالوا" ثم جاء بما يقوي قراءة أهل الكوفة، متأولا بها معنى الآية على أن الوعيد على الكذب لا على التكذيب. وقد أسس اختياره هذا وتأويله على أصلين:

الأول: سياق الآية يوجب أن يكون الوعيد على الكذب؛ لأن الله تعالى أخبر عن المنافقين وقبيح أفعالهم التي كان مدارها على إظهار الإيمان وإبطان الكفر، وهو شر الكذب وأقبحه، فناسب أن يذكر بعده وعيد هذا الصنيع. أما التكذيب فلم يجر له ذكر ليتوعد عليه.

وتفصيل ذلك كما قال الطبري: "أن الله عز وجل أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة، بأنهم يَكذبون بدعواهم الإيمان، وإظهارهم ذلك بألسنتهم، خداعا لله عز وجل ولرسوله وللمؤمنين، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنۡ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

---

[1] - إتحاف فضلاء البشر: 170

[2] - جامع البيان 1/ 284

وَمَا هُم بِمُومِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بذلك من قيلهم، مع استسْرارهم الشك والريبة، ﴿وما يخدعون﴾ بصنيعهم ذلك ﴿إلا أنفسهم﴾ دون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين؛ ﴿وما يشعرون﴾ بموضع خديعتهم أنفسهم، واستدراج الله عز وجل إياهم بإملائه لهم ﴿في قلوبهم﴾ شك النفاق وريبته، والله زائدهم شكا وريبة بما كانوا يكذبون الله ورسوله والمؤمنين بقولهم بألسنتهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وهم في قيلهم ذلك كذَبة، لاستسرارهم الشك والمرض في اعتقادات قلوبهم في أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. فأولى في حكمة الله جل جلاله، أن يكون الوعيد منه لهم على ما افتتح به الخبر عنهم، من قبيح أفعالهم وذميم أخلاقهم، دون ما لم يجر له ذكر من أفعالهم(...)فكذلك الصحيح من القول - في الآيات التي افتتح فيها ذكر بعض مساوى أفعال المنافقين - أن يختم ذلك بالوعيد على ما افتتح به ذكره من قبائح أفعالهم. فهذا هذا".[1]

الأصل الثاني الدال على أن الواجب من القراءة ما اختاره ابن جرير، وأنه الصواب في تأويل الآية: شهادة آي أخر على استحقاق المنافقين "العذاب الأليم على الكذب الجامع معنى الشك والتكذيب، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة المنافقون: 1، 2] . والآية الأخرى في المجادلة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٦﴾ [سورة المجادلة: 16] . فأخبر جل ثناؤه أن المنافقين - بقيلهم ما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مع اعتقادهم فيه ما هم معتقدون - كاذبون. ثم أخبر تعالى ذكره أن العذاب المهين لهم، على ذلك من كذبهم. ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارئون في سورة البقرة: "وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ" لكانت القراءة في السورة الأخرى: "والله يشهد إن المنافقين لمكذبون"، ليكون الوعيد لهم الذي هو عقيب ذلك وعيدا على التكذيب لا على الكذب. وفي إجماع المسلمين على أن الصواب من القراءة

[1] - جامع البيان 1/ 285

في قوله: (وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ) بمعنى الكذب - وأن إيعاد الله تبارك وتعالى فيه المنافقين العذاب الأليم على ذلك من كذبهم - أوضح الدلالة على أن الصحيح من القراءة في سورة البقرة: (بما كانوا يكذبون) بمعنى الكذب، وأن الوعيد من الله تعالى ذكره للمنافقين فيها على الكذب حقٌّ، لا على التكذيب الذي لم يجر له ذكر، نظيرَ الذي في سورة المنافقين سواء"[1]

وحاصل هذا المبنى الاختياري، أن في القرآن نظائر ما في سورة البقرة من إيعاد المنافقين على الكذب لا على التكذيب، فتكون قراءتها نظير قراءة ما في غيرها من السور سواء، ويحمل عليها أيضا تأويلها.

فهاهنا إذن أصلان يرجحان قراءة التخفيف وتأويلها لدى ابن جرير، هما: سياق الآية، وحملها على غيرها من الآي في مواضع من القرآن..

والله الموفق للصواب

يتبع.....

[1] - جامع البيان 1/ 286